بسم الله الرحمن الرحيم

رواية

متاهة حرب

الكاتب/
لؤي عبد الجليل الشميري

السيرة الذاتية للكاتب

الاسم: لؤي عبد الجليل عبد الغني دبوان حسن الشميري

تاريخ الميلاد: 2008\8\21

مكان الميلاد: شمير- بني سيف- تعز – الجمهورية اليمنية

مكان الإقامة: تعز- الجمهورية اليمنية

المؤهل الدراسي: طالب ثالث ثانوي – مدرسة الوليد النموذجية

الصفة: كاتب وشاعر وقاص

أعماله الأدبية:

-شارك في كتب ورقية (مشاعر كاتب- لولاك ربي- أمل وألم)

-شارك في كتب الكترونية أهمها:(عاصفة ولكن من شعور_ ميلاد _ سريرة مذكرات_ حب وحرب – الرصاصة الأخيرة)

_ هذه الرواية (متاهة حرب) وكتاب جديد منفرد(قصر السعادة)

إهداء

إلى الأرواح الطيبة التي فارقت الحياة فداء للوطن

إلى الأجساد التي أبلتها الرصاص تضحية للوطن

إلى كل دم نزف وعين دمعت

إلى كل أم ثكلت وامرأة أُرملت

إلى كل من فقد أباه

إلى كل من اكتفى بالوطن

وأخيرًا إلى كل من شجعني وألهمني بالفكرة

السلام على أرواحكم جميعًا

مدخل

في حياة هادئة مليئة بالحب والوئام، مكسوة بلباس الألفة والسلام

أراد الله أن يخلق في الأرض قصة حب أليمة ابتدأت بمولد بطليها

بطلها الأول فلسطيني اسمًا وحُقَّ له هذا الاسم

أما بطلتنا يمانية ذات مشقر ووشاح

كلٌ وُلدا وتربيا في أسرتين عريقتين وفيتين لوطنيهما

بطلنا الفلسطيني كان من نصيبه اسم "محمد "من أصول "غزة"

أما بطلتنا فاسمها "خولة" من أصول "تعز"

كلٌ منهما عاشا بحرية وإباء تعلماها من والديهم

وفي ليلة اكتمل بدرها رأى رؤيا تسر الناظرين

في الصباح يركض إلى أبيه

_محمد: -أبي -لقد رأيت رؤيا وكأنها بشرى خير.

_الأب: وأي رؤيا تلك -يا بني- أخبرني علني أجد تفسيرها.

_ محمد: إني رأيت نورين التقيا أحدهما من اليمن والآخر من الشام فبزغ منهما نورين يضيء بفراش رافعة علمين مكتوب على أحدهما اسمي بماء من ذهب أما العلم الآخر فهي اسم بنت لم أره جيدًا اسمها..... للأسف نسيت.

_ الأب: بشراك -بني- إن أمامك مستقبل مشرق ملهم للناس.
_ محمد: وما تفسيرها _ أبتي_ هل لك أن تخبرني.
_الأب: لا تعجل ستعرف تأويلها في مستقبلك فقط أبشر.

وبمثل ذاك من أرض اليمن الأحداث ذاتها والحلم ذاته رأته خولة فأخبرت أمها وهي بحالة استغراب فطمأنتها أمها قائلة: لا تخافي فستكونين حبلى ببطلين يلهمان العالم بشعار الحرية وشعلة النضال فأبشري.

فترعرع محمد وتعلم مع أبيه فنون القتال والفروسية، أما خولة فروَّضت الجياد وركبت الخيول فكانت خير من امرأة روَّضت الخيول.

حتى وصل محمد إلى الثانوية فأراد أبيه أن يرسله إلى اليمن ليدرس الثانوية والجامعية فجهز عتاده ليرتحل إلى اليمن فأوصاه أبيه:
" لقد أرسلتك إلى مدد المصطفى، إلى القوم التي قال عنهم الله (يحبهم ويحبونه) هم أنس للمغترب وسراء للحزين فتأقلم معهم فإنك ستعيش وكأنك بين أسرتك" فارتحل ومن هنا بدأت إرهاصات البسالة.

وصوله اليمن

وصل محمد إلى اليمن فاستقبلته أرض اليمن واستقبله الناس بحفاوة وترحيب قبل أن يعلموا أنه ابن فلسطين وما إن علموا زاد ترحيبهم واستقبالهم حتى وصل تعز حط رحاله في الحالمة اليمانية فزاد غرامه باليمن السعيد وأحب بلهفة هذه الأرض السعيدة فبدأت هواجسه لتخط أول كلماته فاستل قلمه وأخرج دفتر مذكراته وبدأ يسترسل كلماته بكل حب ووئام مفعم بآيات الجمال

" كلماتي جف أمام بحر جمالكم، علموني ثمانية وعشرون حرفًا لكن ويكانهم ناقصون أمام جمالكم أم أن حروف الامتداح نسخت بوجوهكم"

وكل يوم يزداد تعلقًا بأهل اليمن حتى جاءت السنة الدراسية الجديدة وحان وقت السبب الذي جاء من أجله فتسجل بمدرسة الوليد النموذجية وبدأ سنته الدراسية بهمة وإصرار نال إعجاب أساتذته وانبهر منه زملائه وفي تلك المدرسة كانت تدرس خولة في نفس الصف لكن بشعبة أخرى ومن هنا بدأت المتاهة

بدأ التعاون بين الطلاب لمسابقة الطالبات بالمناهج الدراسية فنافسوهم وتقدم الطلاب على الطالبات والتقى بطلي روايتنا لكن بدون أي شعور فمرت السنة الأولى وأوائل السنة محمد وخولة وهكذا مرت السنة الثانية وجاء الموعد للسنة الأخيرة فكلٌ جد واجتهد وتشاركا الأفكار وكأن قصتهم الشيّقة بدأت وفي حفل التخرج شاركا في فقرة نزال شعري من نوع فريد كل منهم يمتدح بلدة الآخر بأبيات شعرية

حفل التخرج

بدأت خولة بالنزال ممتدحة زهرة المدائن:

_بشراك يا زهرة المدائن أرض المهد والمعراج
_ لكم حبي وطيب امتناني أنتم الأرض والابراج
_ لأنتم الأصل والوجدان وحريتكم أمر دُماج

فرد محمد يرد جميل المدح مغرمًا باليمن السعيد:

_ وطنكم وطني والحب نصفان قاسمة شتان بين غزة واليماني
_ أحببتكم حبًا والروح شتان تهوى القدس تارة وكرة اليماني
_ أعانق الأشجار مغرمًا بطيبكم فتدنو وارفة الظلال بكرم يماني
_ لله دركم من بلد حكمة وأثناها سيد الخلق بالإيمان يماني

وكانت هذه أول تجربة شعر للإثنين كانت سببًا لتجاذب القلوب فوقعت عيناه بها وبدت على ملامحها سيما الخجل والجمال الداخلي فقرأ كلمته عن الوطن الجريح فلسطين بدموع تملأه عيناه ثم صعدت خولة مرة أخرى تربط على قلبه قائلة:

لا تحزني فلسطين فما زلت علينا عهد ودَين فلن يدنسك اليهود مهما حاولوا ولن يمسك المعتدي مهما تآمر فكل مالهم وعتادهم وإن كانت جبالهم ذهبًا لن يصلوا إلى نصفك الأول وكذلك مهما تآمروا وخططوا وقتلوا ودمروا ما يزالون تحت نصفك الثاني واختتمت كلامها بدمعة حارة السلام على أرواحكم يا بلد الزيتون.

سبع عجاف

انتهت السنوات المليئة بالجد والاجتهاد، بالحب والوئام لتباغتهم أيام نحس وسوء دون علم منهم فبعد أن أكملا الثانوية ذهب كل منهم في سبيله لكن أبى القدر إلا أن يجمعهم مرات وكرات فاستغل محمد سنة الإجازة بالتدريس في نفس المدرسة ردًا للجميل وكذلك بالمثل فعلت خولة وبدأت المشاعر تتسلل إلى قلبيهما فأحبها حبًا يعجز اللسان عن وصفه فقرر خطبتها من أبيها فلما عاد إلى بيته أخد يفكر كيف يطلب يدها وليس لديه أحد هنا لكنه أراد أن يحاول إذا حالفه الحظ فذهب إلى أبيها ليطلب يدها فأكرمه الأب وخفض له جناحه لكنه رفض فكرة الزواج خوفًا على ابنته

فعاد محمد إلى بيته يجر ذيول الخيبة، قلبه يكتوي حزنًا، أظلمت الدنيا أمامه ما عاد يرى النور والبهجة، فقد استبدلتا بديجور الحسرة

لكنه رفض اليأس الذي حاول أن يطغى على أمله الكبير ونهض من جديد ليكمل مسيرته ودرس الجامعة وتخصص في الطب بامتياز كما عهدناه

ووصل خبره السار إلى والديه ففرحا وأقاما مأدبة كبيرة بمناسبة هذه الفرحة الكبيرة

وأعد أبيه له مفاجأة ليفاجئه بها حين يصل عيادةً مجهزة بكل معداتها واحتياجاتها

لكن شاءت الاقدار أن تنشب حرب في اليمن أغلقت الحدود ودمرت المباني والدور فهمّ محمد بأن يدخل في الحرب حاملًا سلاحه صاقلًا لقدراته التي تعلمها من أبيه نصرة لليمن السعيد الذي جرح من أهله وكان من القيادات في هذه الحرب أبو خولة دموع محمد تنزل أسفًا واستغرابًا ماذا حل باليمن السعيد؟

ماذا حصل؟ أين العاقلون؟ أين السعادة التي كانت تعم أرجاء الوطن؟ لمَ ينقمون منها وما ذنبها؟

ابن يقتل اباه، زوج يتخلص من زوجته، إخوان يتناحرون، وأبناء يتحاسدون دور تباد، أشجار تحرق، البن انتهى، والحب اختفى، حياة أصبح عنوانها الدماء فصولها الدمع والحزن واليتم، أبطالها أم ثكلى، وأبناء يتامى، وأطفال عرايا الجوع قاتلهم، والفقد باغتهم، والدنيا عادتهم، ليتني أدري ما السبب؟

أم أنها كبلادي فلسطين يحسدها الناس وينقمون منها ما استطاعوا

في الوقت ذاته تنصت عليه والد خولة فلما أحس بوجوده أسرع يمسح دمعه ويكفكف حزنه فأجابه والد خولة: أنا سأقول لك ما السبب

_ ألم يقل سيد الخلق " اللهم بارك لنا في يمننا وشامنا"

_ بلى

_ ألم يقل رب الخلق عنا " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه"

_ بلى

_ أوليس نحن من كنا بالقديم سببًا للإطعام من جوع في رحلتي الشتاء والصيف إلى الشام واليمن

_بلى

_ ومن أهل اليمن من هم أول من كسا الكعبة

_ حقًا

_ نعم- وكذلك من أصل اليمن أنصار رسول الله

_ كفاكم شرفًا

_ لم أنتهي بعد نحن منّا لسان اليمن الهمداني والشوكاني والأمير الصنعاني.....

_ أكمل لتربت على قلبي ما بال الدمعة سقطت من عينيك

_ حسرة على أنفسنا أين كنا وكيف أصبحنا

نحن أصل الحضارات منذ القدم

وأولو بأس وقوة كعاد وإرم، عرفنا بالشورى والحكم

وانتهى في أرضنا دأب كل غازٍ عابد الوثن

_ عماه أنتم الحضارة والريادة أما إن مناقبكم لتستحق أن تخط بماء الذهب على أوراق بقدر جبال الألب

_ نعم وما نقموا منا وزرعوا الفتن إلا لهذا السبب وأنتم يا بني أولو حضارة عريقة فأنتم أهل فلسطين أهل حب ووطن

فقاطعهما صوت الأذان ليفترقا

أما عن أبيه فقد أشيع إليه مقتل ابنه في مصاب اليمن فتولى عن الملأ وفارقهم واعتزلهم يجهش بالبكاء، عَبراته قرحت أجفانه، وأحزانه هزت أركانه، ألم الفراق هد أردافه، خلا بالمحراب مناجيًا ربه، وما زال في قلبه أملًا يثبت قلبه

فأخذ يذكر ويردد قول يعقوب في مصابه حين فقد ابنه وفلذة كبده

فقد يوسف واشتد بكاؤه أما هو فقد فَقَدَ محمد نور قلبه فقد ماء عينه من الحزن على ولده يذكر نفسه برؤيا ابنه فيستبشر بعودته يحاول أن يزرع ورود الأمل بين أشواك اليأس فيرفع يديه مناجيًا:

" رباه يا من رددت إلى يعقوب ابنه، واعدت لأيوب بنيه ها إن إبني لا يعلم بحاله سواك كن له خير وأعنه إن كان حيًا وإن مات فأكرم مثواه ودلني على جثمانه، رباه إن قلبي لا يقوى على الاحتمال وإن نفسي قد انهارت من خيبة الآمال إن لم يكن بك غضب عليَ فلا أبالي "

وبدأ خيال الوجد يطغى عليه فيرى ابنه كلما أبصر وسمع صوته في العيادة التي أعدها من أجل ابنه فأسرع يصرخ ابني..ابني عرفت أنك ستأتي وللأسف لم يره فعاد إلى غرفته يجر ذيول الحزن والحسرة وهكذا ظلت حياته بين نحيب وبكاء وامرأته تحاول أن تربت على كتفه وأن تخفف مصابه والدنيا مصرّة أن تظل مظلمة في وجوههم اعتزلوا الناس في النهار ولاذوا إلى بارئهم في المساء يدعوه ويبتهلون إليه

عمّ الحي صمت وحزن يرفعون أيديهم بحزن كل حين يدعون الله بأن يخفف مصابهم

أما محمد لم يكن يعلم بكل ما حصل وضحكت له الدنيا مرة أخرى حين عرض عليه أبو خولة بعد ما رأى من كبر مقام محمد أن يزوجه بابنته فوافق ودموع الفرح تطغى عليه والبسمة تستعمر شفتيه فخطبها وتزوج بها وبعد مرور سنة ونصف كانت خولة قد انجبت ولدين توأمين لهما من جمال يوسف نصيب فتذكر رؤياه فهمهم بقوله ويكأنه هذا تأويل رؤياي فسمعته خولة وسألته عن رؤياه فحكى لها فتبسمت بملامح استغراب فسألها ما بالك قالت: إنه الحلم ذاته الذي حلمت به ويكأن لهما حكاية مشرفة.

وانفك حصار الحدود فهمّ أن يعود إلى أهله مع زوجته فودع عمه وعمته وشد رحاله هو وزوجته ليغادرا اليمن صوب فلسطين وخولة على أحرمن الجمر لترى فلسطين حتى بلغا حدود غزة قبيل المغرب فاستبشر ودخلها حامدًا ربه بعد أن كان قد يأس من أن يعود يومًا ما

جاء وقت الصلاة أجمع المصلون على ألا يصلي بهم إلا أبا محمد فتقدم ومازال الحزن يطغى على ملامحه وقرأ قوله تعالى:

(فتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) يوسف

فغلب عليه البكاء وأجهش يبكي أما محمد فقد ترك امرأته بجانب المسجد ودخل يصلي وحين دخوله أدى تحية الإسلام فسمعه أباه واستأنس لصوته وفر الحزن وولى البكاء وأكمل صلاته وحين أكمل الصلاة أخذ يبحث عن صاحب الصوت فإذا هو رجل غريب أخذ يسأله عن اسمه فقال اسمي محمد ابن ياسين فلم يستطع أن يتمالك نفسه حين علم انه ابنه قد عاد بعد طول غياب وأخذ يضمه ويقبل رأسه ويتحسسه ليطمئن عليه فاستغرب محمد وسأل اباه لمَ كل هذا الترحيب؟

فلما حكوا له ما حصل تبسم وقال لأبيه: لقد حصل معي عكس ما ظننتم
اخرج كي أريك فخرج معه فإذا به يرى امرأة يملأها العفة والاحتشام فقال لأبيه: إنها خولة زوجتي وهؤلاء ابناي صلاح الدين وذو يزن وحكى له ما حصل له باليمن
ثم تذكر أمه فسأل عنها فقال له أبيه: إنها بالدار تنتظر خبر مثل هذا
فذهب محمد مسرعًا إلى أمه فرآها رافعة يدها تناجي ربها والحزن يعرف من صوتها فلم يقاطعا وتركها تدعو
" إلهي إن أم ثكلى بدون محمد فأرجعه إلي سالمًا غانمًا يا ذا الجلال والمجد
إلهي إن كانت قد انتهت السبل بإبني محمد فأسألك ربي بعاجل الموت واللحد
يامن قوله الحق يا من أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون كن لابني محمد"
فلم يحتمل محمد وقاطعها بنبرة حزن "ها إن الله قد رد إليك محمد "
فالتفتت فإذا بمحمد يركض إلى حضنها وظلت تقبله ودموع الفرح تنزل وتعاتبه لم تأخرت علينا؟ لم كل هذا الزمن فحكى لها قصته وعرفها بخولة وابنيه
فأخذت تقبلهم وتدعو لهم بالبركة والصحة وراحة البال

وبمناسبة هذه اليوم أعلن ياسين بمأدبة كبيرة قبل أن يقدم المفاجأة المخبأة لمحمد فلما أكملوا الأكل وانتهوا قرر ياسين أن يعلن بافتتاح عيادة اليمن السعيد لابنه محمد وزوجته خولة فأخا يساعدان الناس بالطب ويساعدان المرضى والمتألمين بكل حب ورفق ووئام بنكهة ممزوجة بين اليمن وفلسطين ومر على ذلك عشرون عامًا حتى ارادت خولة أن تزور أهلها في اليمن ومن ثم تعود إلى فلسطين

فراق مر

فلملت أغراضها لتزورهم وأخذت معها ابنها ذو يزن وودعت زوجها وابنها وداع مفارق ومن ثم ارتحلت وهي مسرورة بأنها ستلاقي أهلها والدمع ينزل حزنًا على زوجها وابنها حتى وصلت اليمن ودخلت إلى ابيها تبحث عن أمها قبل أن ترحب بأبيها فسألت عن أمها فعم الصمت أرجاء المكان، فرفعت صوتها بنبرة حزينة أين أمي فأجابها أبوها والحزن يكتم أنفاسه: لقد جاءتها رصاصة غادرة إثر هذا الحرب الذي حل ببلادنا فأسرعت إلى قبر أمها تتمسح فوق تراب قبرها

" أماه من هذا الذي طاوعه قلبه ليبعدك عني، أجيبيني أمي، ألا تسمعيني؟ أماه من سيسقي الزهور التي كنت تسقيهم كل يوم؟ من سيطبخ لأبي بأنامل سحرية يملأها الحب؟ أماه الدار مظلم بدونك، كيف لي أن أقوى أن أعيش بدونك، كل هذا بسبب الحرب البغيض شتت شملنا وفرق أهلنا، قتل البنين ووأد البنات، أكل مال الضعيف وتآمر على الحب والرغيف، لمَ كل هذا أيها الحرب؟"

وطن يئن ويلملم شتاته والسلطة باتت من ساس إلى ساس
يهاب الربعة من أوهامه فلا عيش والعيش إنجاز للناس
مكابدة مر عيشها وبئس مرارة وحلو عند عديم القلب والإحساس

وداعًا أمي .... السلام على روحك الطاهرة

الحرب المستعرة

اشتد وطأة الحرب، بدأت الرصاص بالهطول، تمادى الظالمون، قتل الأبرياء والضعفاء، بدأن النساء بالنياح، وبدأت المقابر بالاكتظاظ، امتلأ أفواه الأبرياء "لطفك يا رب، عونك يا رب" فلسطين تصرخ وتستجير، واليمن تنادي وتستغيث افترق الأحبة وامتلأت الشوارع والأزقة بالحزن والأنين، أرض مخضبة بالدماء، والأكفان تحمل الأشلاء، أطفال تحت الأنقاض مدفونون، وأمهات ثكالى ينوحون

هكذا كان حال محمد في فلسطين، وخولة في اليمن

حاولت خولة الرجوع إلى فلسطين لكن عادت الحدود لتُغلق من جديد
هيأت ابنها وألبسته لبوسًا يقيه بأسه واستبسلت به توصيه والدمع يحجب كلامها:
"بُنيَّ قد جاء الوقت لتؤدي واجبك الوطني، أمك اليمن بحاجتك، أجب دعائها، كن لها، قاتل من أجلها، امسح دمعها، واربت على كتفها، اغزُ العدو _نصرك الله _ ولا تعد إلا منتصرًا، أو لا تعد"
وأخذت تقبله وتضمه إلى حضنها ثم استرسلته تودعه وعَبراتها تملأ وجنتيها وتبلل ترائبها وتقول:
" ذو يزن لا تنسى الاسم الذي تحمله أنت حامي الوطن، وداعًا بُنَيَّ"

ومحمد يثبت نفسه على فراق خولة وابنه ذو يزن بقُرَّةِ عينه صلاح الدين

يحدثه عن صلاح الدين الأيوبي وعمَّ فعل من بطولات من أجل فلسطين

يحدثه كل يوم ويذكره كل حين، حتى جاء الصاروخ المتمرد الدخيل؛ ليحط على بيت محمد.
تمتلئ البيت بالنيران، اعتلاها الرماد، هرع الناس ليطفؤوا الحريق، واعتلت الأصوات " رحماك يا رب"

سقط إثرها والديَّ محمد بإصابات مضنية
أسرع الإسعاف لينقذوهما إلى المستشفى

محمد يصرخ " أبتاه، أماه" إلى أين ذاهبون؟ يكفي فراق خولة، يكفي فراق ذو يزن تمرغ في التراب خانتاه رجليه على التحامل فأخذ يصرخ " رباه لا تفزعني"

الصمت يعم مرة أخرى أهل الحي ياسين وزوجه ينازعان الموت، ومحمد يتلقى ضربات قاسية من القدر فراق تلو فراق، ينتظر اليوم الذي سيستقر فيه حاله

فوصلوا إلى المستشفى بعد أن فقدا معظم دمائهما

سارع الأطباء لإنقاذهما وهرع الناس للدعاء لهما، بعد فحص ومعاينة ادخلوهما غرفة العمليات، ظل محمد ينتظرهما ساعات طوال

وحاول صلاح الدين أن يصبر أبيه، ويمسح دمعه، ويربت على كتفه، وهو يدافع نبرات الحزن:
" أبتاه فلتصبر إنك على الحق، ولا تحزن فأنا سأكون عند حسن ظنك وانتقم لكم من هؤلاء الغزاة الظالمون"

فربت على كتفه محمد وقال له:
ها قد جاء دورك لتأخذ بثأر أهل فلسطين وتلبي نداء فلسطين

مرت ست ساعات على العملية، فقد الأطباء الأمل، وسلموا الأمر كله لله
خرج الأطباء ليصبرا محمد ويوصياه: " فليكن أملك بالله كبير، فقد خلص الأمل من الدواء وما بقي لنا سوى رب الداء والدواء، فلتصبر"
فتسلل الخوف إلى قلبه وأخذ يركض نحو والديه وهما ينازعان سكرات الموت فقبلهما بلهفة والدمع ينزف والنحيب يملأه "أبتاه تحمل، أماه اصبري، حتمًا سنأخذ بحقكم من هؤلاء المعتدين"

فشهقا شهقتهما الأخيرة ونطقا الشهادتان وأيديهما متماسكتان فبلغت الروح التراقي وعجز الطبيب والراقي والتفت الساق بالساق وتيقنوا أن إلى الله المساق
فرحلا وودعا الدنيا والناس في فزع وذهول، محمد تملأه الخيبة يصرخ وينوح
يحاول الناس تثبيته وهو يصرخ ويصيح "أبتاه.... أماه من سيكون لي"
" أبتاه من سيمشي معي إلى المسجد" " أماه من سيؤنس وحشتي"
" أتركتموني وحيدًا أتجرع علقم الفراق أخبروني...؟"

يتحسس جسديهما يقبلهما ويشم ريحهما لأخر مرة يسأل نفسه:
ماذا جرى لبلد الزيتون؟ أين عزة المسلمون وقوة المؤمنون؟
لمَ كل هذه الذلة؟

يجهزانهما لمراسم الدفن يحمل جنازتيهما مع الناس وفي كل خطوة يتذكر ذكرياته السعيدة في كل خطوة يتذكر شقاوته في طفولته وأبواه يبتسمان له ويضحكان
ومرة يتذكر حينما كان ينصحه أبوه في كل زلة وخطأ يقترفه
وكرة يتذكر الورود التي كان يسقيهم هو وأمه كل صباح

حتى وصلا إلى المقبرة فحطوهما في لحديهما ورموا بالتراب عليهما وبكل رمية يحس محمد وكأنها تمزق من قلبه وأوصاله الدمع يثقل كاهله والحزن يسبل مدمعه

فأخذ حجرًا وكتب عليها:

" ينام في هذا القبر شخصان تجرعا مر الحياة وعاشا لذتها، ينام في هذا القبر شخصان هم الأعز إلى محمد دفعا كل ما بوسعهما من غالي ونفيس من أجله السلام على أرواحهم "

وترك الحجر أمام قبريهما وعاد يبحث عن بيت يأوي إليه بعد ما أخذ الحرب داره حتى وجد دارًا لكن ليس كداره الأول لا يملأه محبة أبيه ولا حنان أمه وأخذ يهرع يجهز العدة لابنه مسترسلًا إياه للحرب وأقسم عليه على ألا يعود إلا منتصرًا

وبين اليمن والشام كل من محمد وخولة يدعيان لوطنيهما وولديهما حتى انتصرت اليمن وعاد ذو يزن إلى أمه رافعًا رأسه مستبشرًا بالنصر الذي عمَّ بلاده فاستقبلته أمه وهي مسرورة بنصر بلادها مستبشرة بمقدم ولدها

فزوجته بابنة أخيها سلوى ثم عزمت على الرجوع إلى فلسطين مع ابنها وزوجته وبالفعل عادت ولما وصلت سبق قلبها سهام خبر رحيل والدي محمد وأخذت تبحث عن صلاح الدين فأخبرها أنه ذهب مجاهدًا في سبيل الله نصرة للوطن

خولة: نعم ما فعلت _ محمد_ لله درك.

محمد ما زال غير مصدقًا بأن التي تقف أمامه هي خولة:

أحقًا أنت خولة وهذا ابني ذو يزن؟

خولة: نعم وهذه امرأته سلوى

وحثت خولة ابنها ذي يزن على أن يشد أزر أخيه صلاح الدين ويجاهد معه فاستحسن الرأي وذهب.

متاهة جديدة

وما إن مر شهر على لقاء الحبيبين ذهب خولة إلى السوق لتقضي حاجات بيتها رآها الغزاة وأرادوا أن يأخذوا ما تبقى لمحمد ثأرًا لمَ ينكل بهم هو وأولاده فخطفوها وحبسوها في نفق كبير تملأه المتاهات والمعوقات

ظل محمد ينتظر خولة كي تعود حتى جاء طفلان يركضان نحو محمد يخبراه بما رأوا وأروه باب النفق فهم بدخولها والفزع يملأه خوفًا على خولة فهي آخر ما تبقى له فدخل النفق بل متاهة عميقة يستحيل الناس دخولها

والغزاة على يقين أنه سيتبعهم فوضعوا في طريقه معوقات كي لا يصل وإن وصل سيصل ضعيفًا منهكًا وبالفعل مشى محمد حتى اعترضته أشواك وخطاطيف جارحة

لكنه تحمل كل هذا من أجل خولة ومر والأشواك توخزه وينزف إثرها الدم حتى تعداها ليلقى أمامه مستنقعًا مليئًا بالتماسيح وخلفه ثعابين ذات سمٍّ زعاف
فأقر بصعوبة ذلك وأنه لن يستطيع الوصول مهما عمل
واتخذ زاوية ويظل يصرخ ويبكي حتى جاءه شيخًا حكيمًا اتخذ من هذا النفق ملجأ له من الحياة المليئة بالظلم والحزن والأنين فرأى حالته الرثة فسأله ما باله
لمَ كل هذا البكاء والعويل؟

فحكى له قصته وما حصل معه من فراق تلو فراق وألم تلو ألم والبكاء يدفع كلماته فقال له الحكيم:

_ أحقًا تحبها.

محمد: نعم، وكيف لا؟

الحكيم: إذًا فحارب من أجلها.

محمد: وكيف سأستطيع أن أتخطى هذا المأزق.

الحكيم: لا عليك فأنا لي سنوات عدة هنا وأعرفهم ويعرفونني

فأخذ الحكيم يصفر لهم وجنبهم عن محمد فشكره محمدًا بكل حب وامتنان

وقبل أن يذهب قال للحكيم: أوصني

_" اجعل غايتك نصب عينيك ولا تستسلم"

فاستحسن النصيحة وودع الحكيم وذهب وكلما مر بمنغصات أو معوقات تذكر هذه الوصية مر يومين على دخوله وهو يمشي وهو بدون طعام ولا شراب حتى قرب الوصول وجد بابًا ضخمًا يقف أمامه فأخذ ينخر هذا الباب ويتذكر وصية الحكيم

وقبل أن ينتهي تذكر والديه وفراقهم ودموع العين تملأ مدامعه تذكر طول الفراق

وخر حزينًا يدافع عَبراته" أبتاه.... أماه إنا على العهد ماضون "

ونهض من جديد لينتهي من كسر الباب فاجتث الباب ودخل مناديًا " الله أكبر" يرمي ذاك العدو ويقتل ذاك حتى اخترقهم ووصل إلى خولة فرأى ما حل بها من ضرب وتعذيب وتنكيل فازداد غضبه على خولة وهي مبتسمة وتردد" كنت متيقنة أنك ستأتي"

فأخرجها من هذا النفق الكئيب بعد أن مر عليهما أسبوع

وقد أعادها بعد فراق ليس الأول حتى وصلا إلى خارج النفق وجاء الولدان يركضان إلى أمهما ليقبلاها فجاءت البارودة اللعينة لتأخذ روح محمد بعد أن عانى كل ويلات الحرب وآهات الفراق.

سقط محمد في حضن خولة صرخت خولة: محمد لا تتركني وحيدة، ما هذه الحرب التي عمت علينا قتلت كل قريب وحبيب لي، يكفيك تنكيلًا بي أيتها الحرب، يكفي يكفي يكفي" وخرت مغشيٌّ عليها

أعادوا بها إلى المنزل حتى أفاقت والدمع لا يفارق مدامعها.

كرهت الحياة، وأيست من الدنيا، عاشت حياة صعبة وقاستها برفقة رفيق دربها ، وها هي اليوم ستقاسيه وحدها

بسمة الأمل التي كانت في وجهها تلاشت، وغزا بسمتها الحزن والكآبة

وظل لسان حالها يصرخ قبل مقالها " إلى متى"

ودعت زوجها قبل أن يلقوا عليه التراب، حذته بطيب المسك، وألقت عليه مشاقر يمانية، بلت أكفانه دمعها، سألت أسنلتقي يوم القرار أم أن حظنا في دار ترحال فقط؟

بعد مرور أيام
هرعت إلى قبره تقبل التراب حتى بلت عَبراتها الثرى، أخذت تتحسس التراب بارد يربت على كتفها، وأقسمت أمامه أنها ستظل تناضل إلى أن تلحق به

عادت إلى بيتها جمعت كل ما بوسعها تكون رابطة نسائية ليناضلن بالأبطال فداء، وبالكلمات استبسالًا، أخذن الحجار رمين باسم الله كل غازٍ ظالم
استبسلن جميعًا وازددن ثباتًا كلما يرين امرأة سقطت أو أم ثكلت.

حتى مرت سنة كاملة مغطاة بغيمة الحزن مبتلة بمطر السَوء

سنة كرهوا أيامها وفقدوا بسمتها، أضاعوا شعلتها ونور ظلمتها.

خولة تنوح وتتضرع بالدعاء كل يوم وابنيها ما زالوا يرابطون في حِمى قدسهم.

عمّ
السعد
من جديد
فهل
سيستمر؟

بعد مرور هذه السنة جاءهم خبر يسرهم بعد هذه السنة

جاءت البشرى لتثلج صدورهم وتقر أعينهم، فأفرحتهم وربطت على قلوبهم

جاءتهم على لسان سلوى: " أنا حامل"

عادت البسمة لخولة وللأسرة الحزينة

فتمتمت خولة قائلة: " عم السعد من جديد، فهل سيستمر؟"

وبهذه الفرحة أعلنت خولة بزواج ابنها صلاح الدين على ابنة جارتهم الفلسطينية

فتزوج صلاح الدين وعادت الفرحة تمحي الماضي الأليم، وتعيد البسمة للجميع

أخذوا يهتموا بسلوى ويتابعون صحتها حتى مرت أشهر الولادة ورزقت بمولودة بهية البنية جميلة الملامح فقرروا تسميتها " بشرى".

كبرت بشرى واعتادت أن تنام بعد قصة ترويها جدتها خولة وكذلك كان يحضر قصتها ابنيها وزوجتيهما.

طلبت بشرى من جدتها أن تحكي لها قصتها وهي صغيرة في سن الورد البهي فتذكرت صباها وبراءة الأيام تلك ثم تنهدت تنهيدة طويلة واسترسلت تروي قصتها فذكرت لها وبحضور ابنيها قصة الرؤيا التي رأوها هي محمد كل في بلاده

فقرر الأبناء أن يعملوا عملًا يفاجئ أمهم فاقترح ذي يزن بناء مسجد لروح أبيهم ولأمهم فاستحسنوا الرأي وبدأوا ببنائه دون علم أمهم

مر على ذلك ثلاث سنوات كانت كفيلة ببناء المسجد وبنوا فوقه مصلى للنساء حتى جاء يوم افتتاحه

_ أماه هلمِّي إلينا سنذهب اليوم للصلاة في مسجد سيفتتح اليوم وفيه كذلك مصلى للنساء،

_ كم لي أتمنى مثل هذا

تبسما في وجه أمهما ثم ذهبا إلى المسجد وصليا العصر وبعد الصلاة قام الإمام حامدًا الله مصليًا على حبيب الله على افتتاح على المسجد ودعا لروح محمد ولخولة الطاهرة فاستغربت خولة

فعلمت أن المسجد بناه ابنيها لها ولروح ابيهم فأدمعت دموع الفرحة والاعتزاز بصنيع ابنيها فطلبوا منها تسميته فعزمت على تسميته مسجد " اليمن والشام" وهمهمت بكلمات محفوفة بالبسمة" هذا أويل رؤيانا، قد جعله ربنا حقًا) الحمد لك رب يوسف حققت رؤياه وها هي رؤيانا حققت.

أم ثكلى

مر اثنى عشر ربيعًا على بشرى فطلبت في ذاك اليوم قصة قبل نومها

فلم يخطر في بال خولة إلا محمد فهمت برواية قصته:
_سأحكي لك اليوم عن بطلًا إليه تنسبين ولك الفخر أنك من نسله
فقالت بشرى وهي متحمسة:
_ حقًا من هو؟
_ ستعرفين مؤخرًا
رجلٌ امتلأت أيامه بأشواك الفراق وشباك الحرب، ظل يحارب البؤن والبؤس.
بطل غاظ منه العداء، وتمنوا مصرعه كل ما سمعوا باسمه.

جاء من نسله ليثان فتحا اليمن والشام، مات والديه بصاروخ تأثر هو منه بشظايا الفراق
_ عرفت من هو..... إنه جدي محمد -رحمه الله- صحيح.

_ نعم وأسبلت عيناها دمعًا
فأخذت بشرى تمسح دمع جدتها.
ثم أكملت القصة حتى نامت بشرى.

وفي مطلع كانون الأول زادت وطأة الحرب في قطاع غزة

فهرع الناس يدافعون عن أنفسهم، أقفلوا محالهم وتركوا أعمالهم وهموا بإخراج العدو والدفاع عن أنفسهم بعد أن خانهم الناس

بعد الصواريخ بالهطول دور تباد، بيوت تهدم، مآذن تقصف، ومحاريب تنتهي
الأنقاض تصرخ أخرجوا الأطفال من تحتي
والأمهات تنوح أرجعوا أبنائي، أين أولادي؟

الأشجار احترقت، والبنية انهدمت، القتل فاض والأسر زاد

الأرض مخضبة بالدماء، وارتفعت أصوات الجرحى بالأنين، والثكالى بالحنين

سلبت طفولة الأبرياء وافتقدوا حنان الأم وعطف الاباء

حتى وقع في أسرهم أبو بشرى ذو يزن فازداد وطأة الحرب في قلب خولة

فأخذت تصرخ وتستغيث، تستنجد أين أنتم يا عرب، أين أنتم يا مسلمين

حتى اجتمع الملأ في حيّهم ليصبروا خولة التي أصابها من الغم ما أصابها فراق ووجد وحزن وتضحية واستبسال وبكاء ونحيب وشوق وحنين

فأخذت تصرخ وتقول:

إلى متى
أين الرحمة؟
أما رحمتم دموع الأطفال
أما لانت قلوبكم لنحيب الأيتام
أما أشفقتم على ثكالى الأمهات
البيوت تقصف والأشجار تحرق والبنيان تنهدم
نسأل هل سيعود صلاح الدين؟
هل سيعود عمر الخطاب؟

فأخذوا يصبرونها ويذكرونها بالأجر العظيم عند الله
وهي تبكي وتنوح بالبكاء تناجي منم هو أعلم بحالها:
" رباه إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي"

السلام على كل روح وقعت روح وقعت ضحية لهذا الحرب البغيض

ومن اليمن قرر أبو سلوى زيارة خولة وأسرتها وهو لا يعلم بما حلّ بهم قط

فسافر إلى غزة وحين وصوله وقبل أن يقر عينه برؤية اخته وابنته أتته سيوف المنية بأسبابها.
وجد بشرى تجلس وحيدة في الرصيف وهو لا يعلم أنها حفيدته فحزن لحالها ورق قلبه حين رآها فسألها:
بُنيَّتي لمَ تجلسي لوحدك، أين الأولاد لا يلعبون معك، لمَ الشوارع فارغة

_ أتسألني ما حل بنا أما عن الأولاد فهم تحت الأنقاض يحتضرون وأما عن الشوارع فأشجارها حرقت وخضبت بدماء الأبرياء

_ كفي لا تقطعي قلبي أكثر من هذا

وفي هذا الوقت جاء الغازي يجر معه في الشارع ذو يزن ليذهب به إلى سجن أخر

فأخذت تصرخ بشرى _ أبتاه.. أبتاه عماه أنقذ أبي
إذا لم يكن من أجلي فمن أجل جدتي خولة التي ظلت تنتظر رجوعه وهي تبكي

_ أأنت حفيدة أختي خولة، ابنة ابنتي سلوى؟
_ نعم، وهل أنت جدي مجاهد؟
_ نعم.

فدفع الغازي ذو يزن إلى الأرض بقوة بعد أن انهارت قواه من الضرب والتنكيل

فركض مجاهد نحو الغازي فلطمه تأديبًا لتماديه على ذي يزن.
الغازي: من أين أتيت لنا أيها الجريء.

_ أتسألني من أنا؟
أنا ابن أيلول أنا ابن صنعاء أنا بن عدن
أنا ابن تشرين أنا ابن أزال أنا ابن اليمن
_ هه أتفتخر بمناقبك الضائعة أيها اليماني، أولًا ناصر بلدك.

_ وما شأنك بي؟

_ هه هيا فأنقذه إن استطعت
ورمى ذو يزن إلى الأرض وأهطل عليه بالرصاص اللعينة

_ فأخذت بشرى تصرخ: أبي.. أبي... لا ماذا حصل؟
وصرخ مجاهد في وجه الغازي ماذا فعلت أيها الغازي اللعين وأخذ حجرة من الأرض وألقاها على رأسه

فغضب الغازي وألحقه بابن أخته وظل يبتسم بخبث دون أن تلامس قلبه أدنى رحمة.

بشرى تصرخ جدي أبي هل من مجيب ماذا فعلت أيها الغازي اللعين؟

فأخذها إلى مقرهم إلى سيدهم الكبير
فسألوها عن اسمها؟

قالت: أنا بشرى
_ سنطلق سراحك لكن بشرط أن يطأ قدماك علمكم.

_ كلا لن أدنس علم بلادي ما حييت.

_ حاضر، قولي إسرائيل دولة.
_ كلا والله لستم دولة مهما تعاملتم وحاولتم، إن أنتم إلا ضعفاء قويت شوكتكم بغيركم.

_ وكأننا لن نفلح أمام هذه البنت.
سنتفق معك تقبلي يدي وأطلق سراحك
ومد يده لتقبلها فعضته حتى أدمت يده

فغضب غضبًا شديدًا واستل سلاحه فقتلها بكل دم بارد وأخذوا جثتها ورموها أمام جدتها خولة ليغيظوها ويزيدوا آلامها ويزداد الوجد سطوًا في قلبها

فأخذت تجره وتشده وهي تصرخ في وجهها أين ابني ذو يزن
فضحك بخبث وقال: أتقصدين القتيل إنه بجانب المسجد
فهرعت تركض نحوه فرأت أخيها فلذة كبدها مجاهد وقرة عينها ابنها ذو يزن

أخي... ابني ألحقتم بالأولين بشراي خنساء هذا الزمان

واكتمل بلائها حين أصيبت عائلتها المتبقية بمرض شديد معدٍ
غادروا في الحياة
فلما أوشكت أرواحهم على الخروج وثقلت ألسنتهم على الكلام وأجسادهم على المشي أوصتهم بكل تجلد وصبر انطقوا الشهادتان واسبقوني إلى بارئكم وسلموا على عائلتي التي سبقتكم
أنتم السابقون وإني إن شاء الله بكم للاحقة.

ومات عنها كل من تعرف وتحب وقاست ألام الفراق وهي تئن وتحن لفراقهم

تنتظر أجل ربها كي ينزل بساحتها فيأخذها إلى بارئها وتلتقي بأحبتها

النهاية

عاشت حياتها المتبقية وحيدة، بل وقاست أيام الحياة حتى أراد الله أن يربط على قلبها بعد ما أصابها

حتى وقع ذاك الغازي الذي قتل ابنها وأخيها بين يديها وقد أصابه المرض الشديد وقد عذبه المرض أيما عذاب فتوسل إليها أن تقتله وتخلصه من هذا العذاب

فهمت بالتنكيل به لكنها تذكرت قول الحبيب المصطفى:
" فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة"
فقتلته قتلة رحيمة بعد ما اجتث البسمة من قلبها اجتثاثًا.

وفي نومها رأت في منامها تلكم الأنوار التي رأتهم في صباها قد ازداد وهجها وكثر عددها واجتمعوا سويًا عدا نور واحد تأخر عليهم ثم لحق بهم.
فقصت رؤياها على شيخ في حيِّهم فبشرها بلحاقها بهم وأنها هي النور الذي تأخر عن بقية الأنوار أما بقية الأنوار فهم عائلتها الذين هم بانتظارها
والله أعلم

فعادت خولة إليها بيتها وهي مستبشرة تدعو ربها وتبتهل إليه
تصدقت بما تبقى لها من مال وجادت بما معها من طعام وكساء

جهزت كفنها وأمرت بحفر قبرها وظلت تستغفر الله وتدعوه وتبتهل إليه
تنتظر ملك الموت ليزورها ويأخذ روحها إلى حيثما ارتضى لها ربها

وبعد أسبوع من هذا جاءها ملك الموت ودنا الأجل من ساحتها

فظلت تتلفظ بالشهادتين حتى برد جسمها وثقل لسانها ودارت أعينها

تبسمت ضاحكة وقالت مثل ما قالت امرأت فرعون:
" رب ابنِ لي عندك بيتًا في الجنة"
وأنهت كلماتها بالشهادتين ومن ثم اعتلت روحها الطاهرة إلى السماء

لكن اسمها وذكرها ظل زمنًا طويلًا ضرب بها وبمحمد الأمثال في الصبر والتجلد

والمعاناة
فكم من حرب فرق الأسر وشتت الشمل ولاذ بالجميع إلى وطأة البارودة.

النهاية

كلمة شكر

أقدم شكري وامتناني لكل من آزرني ووقف بجانبي

لكل من قال لي أبدعت ليزيد عزيمتي

لكل من وقف بجانبي وقال لي حتمًا ستنجح

أقول لكم شكرًا وإن كان الشكر قليل بحقكم

وأنسج لكم من آيات حبي لكم كلمات شكر وامتنان

ومن كل شمس نشيد حب وإجلال

الكاتب/
لؤي الشميري

سألت الحرب يومًا
متى ستشد رحلك وترحل عن عالمنا؟
قال لي:
عندما يعم الود والحب
وتنتهي الكراهية والأحقاد

عندما يكون للمحبة اعتبار
والمفاضلة تنتهي بلا انتماء

عندها حُقَّ لكم أن تعاتبوني